الاستبشار بالقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عزّ وجلّ، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

موضوع الاستبشار بالقرآن من أنسب المواضيع في هذا الوقت وهو وقت خروجنا من شهر رمضان المبارك، وقد سمعنا هذا القرآن العظيم ووقع في قلوبنا وحصل من حالة الطهارة والنزاهة عن الذنوب ما حصل في ذلك الشهر. ومن أعظم آثار شهر الصوم أن يعيش الإنسان شهرا كاملا وهو باذل الجهد أن ينزه نفسه عن الآثام والأخطاء والتقصير، ويرى الناس حوله أيضا مجتهدين في هذا التنزيه، فإن النفس الإنسانية لما تكون محافظة على فطرتها وقد غذيت بالإيمان، تصبح النزاهة والطهارة أمران يحبه الإنسان وتشرح صدره.

ولتصور هذه المسألة تصور موقفين وانظر كيف النفس تقبل هذا وترفض هذا:

الموقف الأول: عينك ترى في الفجر والرجال يسيرون إلى المسجد تعرف أن خطاهم تخطو إلى الخير، وأنت ليس لك مصلحة في هذا الخير ولكنك تحب خُطى الناس إلى الخير.

موقف آخر: تري أحدًا عائدًا من مكان فيه سُكر وخمر، أسأل الله أن يحفظنا ويطهر ديار المسلمين من كل ما فيها من رجس وآثام، أنت لست متضرر من هذا لكن نفسك يحصل فيها من الكدر ما يحصل.

في الحالتين أنت غير مستفيد، لا في الطاهر الذي يسعى إلى الخير ولا من الذي تلبس بشيء من الإثم، لكنك تحب هذا وتراه مظهرا من مظاهر الطُهر، وتبغض هذا وتراه مظهرا من مظاهر الرجس والإثم. فالنفس تحب الخير بطبيعتها وتستبشر به، وتبغض الشر بطبيعتها وتنقبض منه.

فمن مصالح الشهر الكريم: الاستبشار بعمل الخير الذي يدخل بدقة وبلطف إلى قلوبنا. فمثلا ترى الناس يخرجون إلى صلاة التراويح، ونفسك تنشرح سواءً صليت أو لم تصلي معهم، وترى الناس في الحرم مزدحمين ومقبلين على بيت الله فينشرح صدرك، فالنزاهة والطهارة أمر تحبه النفس، فيأتي الشهر الكريم والناس كلهم مجتمعين على الإقبال على ما يطهرهم ويزكيهم، ويلوم بعضهم بعض إذا وقع منهم شيء من عدم التزكية. يصل الأمر في حب النزاهة والطهارة وكراهية عكسها أن الناس يلوم بعضهم بعضا على تضييع الوقت فيصبح تضيع الوقت حساس. فالنفوس كانت في رمضان متأهبة للطهارة والنزاهة، تشعر بها وتحبها، فلما تخرج من الشهر يبقى علينا أن نمد هذا الذي وجدناه في نفوسنا تميل إليه من الاستبشار بالخير وحبه.

نفوسنا بفضل الله مفطورة على حب الخير، وعلى فعله، وعلى الاستبشار به. في رمضان إذا وقفت عند إشارة وتجد شابًّا يخرج مصحفه ويقرأ فيه إلى أن تنفتح الإشارة، هذا أمر يدخل إلى قلبك السرور الذي سببه الاستبشار بأنه سيأتي جيل فيه خير. يُقال لكِ صفوف الرجال والنساء في الحرم فيها شباب وشابات كُثر يتراوح أعمارهم بين ١٥سنة و٢٠ سنة، هذا يدخل إلى القلب السرور رغما أنه ليس ولدي ولا ابنتي، لكن في النفس حب الخير.

أصحاب الفطرة السوية يحبون الخير لأنفسهم ولغيرهم ويحبون أن يستبشرون بالخير أن ينتشر، وهذه من أعظم ميزات أهل السنة الذي يظهر بقوة في شهر رمضان، أكثر ميزة تظهر في شهر رمضان أن النفس تستبشر بالخير وتحبه، وتحب أن تزكي نفسك والناس يزكوا أنفسهم، وتحب مظاهر تزكية النفس. فمثلا تجد الناس يوم الاثنين يفطرون في الحرم فتشعر بالفرح، تستبشر بمظاهر الإيمان، وهذا أمر لا يخفى علينا في أنفسنا حب الإيمان نسأل الله أن يجعلنا مؤمنين صادقين.

ومن علامة صدق الإيمان: الاستبشار بظهور آثار الإيمان في المجتمع؛ لأن من علامة النفاق كما في سورة التوبة كراهية انتصار وانتشار دين النبي صلى الله عليه وسلم، والفرح بعكس ذلك وتجد مِصداقها في كتاب الله كما في سورة التوبة، المنافقين أو في غيرها.

إذًا من علامة الإيمان الاستبشار بانتشار دين النبي صلى الله عليه وسلم وظهور مظاهر الدين، واستقامة الناس عليه وهذا إن كان شيء من الدين بل من عظيم دلائل الإيمان فهو مما يوافق الفطرة السوية.

الفطرة السوية بدون دين، مثالها ترى أحدا يقبل يدي والديه ويسعى معهما ويحملهما فتقف باكيا، السبب أن هذا يوافق الفطرة السوية ويستبشر به، فإن كان هناك إيمان وهذه الأفعال من أجل الله، وينتظر أجرها عند الله فهذا أكيد من دلائل الإيمان.

فمع مُضِي هذا الشهر العظيم، أسأل الله العظيم أن يقبل منّا جميعا والمسلمين الصيام والقيام ويغفر لنا ما حصل فيه من زلات ونقص، مع مضيه خرجنا بنفوس تحب الخير، ونسأل الله أن يعيده علينا سنين عديدة ونرى أنفسنا كل سنة تزداد محبة للخير والطهر ومحبة انتشار دين الرسول صلى الله عليه وسلم. فمثلا يقولون لك شوارع مكة مغلقة من كثرة المصلين، وأُغلقت أبواب الحرم الساعة التاسعة من يوم الجمعة من كثرة الناس في داخلها، هذه كلها مشاعر جميلة أن هؤلاء مقبلين لا يريدون إلا وجه رب العامين فلا يوجد هناك من يوزع لهم شيء، لا مال، ولا دنيا، ولا أي شيء. والناس كانوا يوم الخميس يصلوا صلاة التراويح ويباتوا في الحرم منتظرين صلاة الجمعة، هذه النفوس المقبلة المشتاقة ماذا تريد؟ لكن من حب الإيمان وأنت ترى هذه المظاهر وإن لم تشاركهم يحصل الاستبشار، وهذا كما اتفقنا في السورة من علامات حسن الخاتمة أن تستبشر بالإيمان وتحبه وترغب فيه وتحب انتشاره، فبقاء هذا في قلبك سيقابل بالنسبة لأهل الكفر والباطل ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾. فهؤلاء يستبشرون فيُرجى بسبب استبشارهم أن يستمروا على الدين وأن يختم لهم به، وأولئك في المقابل ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ بسبب بُغضِهم للدين وشعائره ومظاهره.

هذا الزمن لابد أن يكون زمن الاستبشار، والسبب في ذلك كلما زاد الأمر ضيقا وكلما زادت الظلمة وحلكتها، كلما تيقنا بقرب الفجر ونحن على يقين من ذلك، وهذا الدين منتصر وأهله منتصرين وسيرفعهم رب العالمين، لكن قد نعيش حتى نرى الانتصار ونرى علوه وظهوره وقد لا نعيش فنُقبِل على رب العالمين بهذه العقيدة السليمة التي أصلها

حسن الظن بالله، واليقين بأن الباطل لا يمكن أن يبقى عاليًا على الحق بل إنما هو اختبار لأهل الحق أن يأتي الباطل زمنا ويعلو عليه ثم يعود الحق فيستقر الأمر له.

هذا اللقاء سنناقش فيه الجزء الثاني من آية التوبة بالتفصيل.

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤].

الله أخبرنا في بداية الآية عن المنافقين، لما تنزل سورة يسأل بعضهم بعض: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ فيجيب عليهم رب العالمين: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾. قلنا في اللقاء الأول أن نزول السورة فيه مصلحتين لأهل الإيمان: زيادة الإيمان والاستبشار. ناقشنا بشي من التفصيل في مسألة زيادة الإيمان، اليوم تركيزنا على مسألة الاستبشار:

الآية ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ معناها وقت نزول القرآن، فهل نحن نشاركهم في هذا الحال، أن المؤمنين يزدادوا إيمانا وهم يستبشرون!

قال ابن عطية رحمه الله: وهذا حكم من يتعلم العلم في المعنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة، فإن تعلم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

بمعنى أن الآية ليست حصرًا على وقت نزول القرآن، إنما هذا حكم من يتعلم العلم، فإن تَعَلُّم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة من القرآن. الآية تناقش وقت نزول القرآن وكيف كان رد المنافقين أنهم يسألون ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ وهذا ليس معناه أنه أمر انتهى بل كما قال ابن عطية: "فإن تَعَلُّم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة من القرآن"، فكل مرة تتعلم فيها: النتيجة المتوقع يحصل لك الأمرين زيادة الإيمان والاستبشار وهذا حكم من يتعلم العلم.

أقول العلماء في ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

قال الطبري رحمه الله: يقول الله: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ): من الذين قيل لهم ذلك (فَزَادَتْهُمْ): السورة التي أنزلت (إِيمَانًا)، (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ): وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين.

الاستبشار بالإيمان واليقين

هذه الجملة تحتاج إلى شيء من التفصيل لنرى بأي شيء تكون البشرى، وهذه البشرى أمام ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. فبأي شيء سيفرح هؤلاء المؤمنين الذين سمعوا الآيات وزادتهم إيمانا؟ يقول الطبري بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين. إذًا المعنى المتوقع بعد كل مرة نقرأ فيها القرآن يزداد الإيمان في قلوبنا (الإيمان يتصل بالأمور الغيبية)، وأنه سيزداد في قلوبنا الإيمان حتى يصبح هذا الإيمان يقينا راسخا، ثم يفرح الإنسان باليقين. إذًا الآية تسمعها ماذا تفعل بك؟ تزيدك إيمانا حتى تصبح المفاهيم التي تسمعها في القرآن يقينية لا شك فيها ثم بعد حصول اليقين يحصل الفرح باليقين.

هم الآن يحصل لهم اليقين ولما ينظروا إلى اليقين ويجدوا نفوسهم قد وُجد فيها اليقين يحصل لهم من انشراح الصدر ما يحصل، ويجدون أنهم لو حصلوا على اليقين، حصلوا على أمر عظيم. وهؤلاء عندهم الآخرة أهم من الدنيا، فإذا حصلوا على اليقين يستبشروا به، يشعروا أنهم قد حصلوا على أمر عظيم. فاليقين في داخل النفس –وهو مؤمن أن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هذا كلام الله وأن هذا الدين الحق– لا يستطيع أحد أن يشتريه بأموال الدنيا. فاليقين في القلب لا يُشترى ولا يُباع ولا تستطيع أن تكسبه من تجارة الدنيا، إنما إذا تاجر الإنسان مع الله يتيقّن فيفرح بمكسبه ويستبشر به ويرى هذا اللي كسبه لا يستطيع أحد أن يصل إليه.

هم يستبشرون بعد حصول اليقين، هذا شيء زائد على حصول اليقين ومصدره اليقين. هذه جملة مهمة جدا تحتاج إلى تفكيك، نبدأ أولا باليقين..

اليقين: هو درجة من الدرجات التي يخطوها الإنسان بعد العلم، حالة الإنسان مع أي معلومة إما جاهل أو غافل أو شاك. تنزل السورة يكون جاهل فيتعلم الحقيقة، فمثلا كان جاهلًا بالملائكة العظام، جاهلًا بمآل المؤمنين، جاهلًا بمعاملة الله لخلقه، جاهلًا أن الله معه وقت صبره، جاهلًا أنه إذا اتقى فرّج الله عليه، أمثلة كثيرة على ذلك. فإذا جَهِلَ بأن رزقه مكتوب وهو يضارب ثم قيل له: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾ [الحديد:٢٢-٢٣] فهم الآية ثم تفاجأ لأنه كان جاهلًا بالمسألة. كان يضارب ثم تبين له لا يوجد مضاربة بل اسعى بالطرق التي أمرك الله واعلم أنه محفوظ لا ينزعه أحد من الخلق. فلما تنكشف عنه هذه الغمة أي أنه كان جاهل وتعلم، هذه الدرجة الأولى فالآن تعلم

وعرف المعلومة وعرف أنه لا يضارب بل يسعى بهدوء وسيصل وسيجده محفوظًا ثم الموقف بعد الموقف يربيه الله فتظهر له المسألة كالشمس. ويكون متأكد يرى الموقف بعد الموقف ويقول حقا أن رزقي محفوظ، الناس يتضاربون وأنا بفكرة أُلهمها في دقيقة وأُحصِّل رزقًا ما حصلوها هؤلاء الذين يضاربون فيزداد يقينًا.

الدرجة الأولى كان جاهل بالمسألة تعلمها من القرآن ثم تأتي المواقف بعد المواقف يتأكد من صحة هذا الكلام ثم يعود فيقرأ القرآن فيزداد فهما وتصبح كالشمس ويفهمها حرفا حرفا، هذا الذي عاشه يقرأه حرفا حرفا يزيد مع الأيام ويزيد مع تربية الله ويزيد مع التجارب ويزيد مع المواقف ويزيد مع ما يحصل له أو يحصل لغيره. هو الآن ينظر إلى الواقع ويجد شواهد كثيرة على هذه الحقائق وهو يجمعها فتصبح كالحزمة – يذكرها أو لا يذكرها ليس هذا الشرط — فهو في داخل نفسه أصبحت هذه البقعة بقعة ضوء واضحة بأنه لا يوجد أحد ينزع منك رزقك ثم يقرأ في القرآن مرة أخرى فتزداد هذه البقعة إضاءة ونورا وبيانا فيمشي في الحياة على هذا النور، يكون ميت في هذا الجزء يحييه الله، يكون في ظلمة ينور له الله ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهو لا يتخبط فيهم، إنما عنده نور يمشي به في الناس.

لما يأتي أحد يقول: أنه يخشى من أحد أن يأخذ منه ترقيته، ولازم يجري من أجل أن يحافظ على مكانته، وتعب من كثرة ما يدفع هذا وهذا، فمن عنده قوة يقين في داخله يستعجب منه، ولا يدري من أين يبدأ له الكلام لينصحه وكيف ينقل له اليقين الذي بداخله الذي تحصل له. فنور اليقين الذي بداخله لا يستطيع أن يرى الظلمة التي يعيشها الناس في هذه المسألة التي انكشف فيها الجهل عنه فأصبح له قدم راسخة في هذا الباب. ثم إذا رأى ذلك مازال تائها – يجري ويضارب ويحارب ويظن أن هذا أخذ منه – يفرح بما رزقه الله به من اليقين، ويرى كم قد منّ الله به عليه، فهو يعرف ومتيقن ومطمئن أنه لا شيء يسبب له القلق أو الخوف فيأتي الفرح بما تحصّل له من اليقين.

فاليقين شأن والفرح به شأن آخر لا يشعر به إلا من يشعر بنعمة الله، والناس يعيشون في نعمة الله لكن لا يشعرون بها فيحصل لهم حالة عدم الاستبشار وعدم الفرح.

ولتصور هذه المسألة تصوروا أحوال المسلمين، خاصة في هذه الديار فتحوا أعينهم على السنة –لا يعرفون قبور ولا أضرحة ولا أحد يتمسحون به ولا أي شيء من أنواع الشرك– فالغالب لا يفرح بهذا الأمر ولا يشعر أنّ الله منّ عليهم ولا يستبشروا بكونهم موحدين خالصين، وُلدوا على التوحيد، تربّوا على أن ربهم هو العظيم وأن يسيروا وراء نبيهم صلى الله عليه وسلم، ما عندهم أسماء أخرى لامعة في سماء دينهم، ما لهم إلا العلماء يدلوهم على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسيرون وراءه إلى ربهم. نعمة عظيمة هذا التوحيد، منّة لا يكاد الإنسان يستطيع وصفها، ونحن لا نرى أنفسنا نستبشر بها والناس يتفاوتون في الفرح بذلك. إذًا اليقين أمر يعيشه الإنسان والاستبشار بهذا اليقين أمر فوق وقوع اليقين.

لذا يقول الطبري: "وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين"، فرحهم بالإيمان واليقين. لما يقول له أحد لقد كسبتَ مائة ألف، كسبتَ مليون، أو أعطوك أرض.. فلا ينام ليله ويبقى طول تلك السنة في فرح وهذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة! وقد كُتب لكل عبد فيها مقسومه، لكن اليقين الذي ما في مثله، لو الناس اجتمعوا على إزالة شك من قلب أحد، ما استطاعوا ربما استطاعوا أن يزحزحوا جبلا ولا يزيلوا شكا.

إذا كنت في حالة من المعرفة اليقينية وفي حالة من الثبات والاستقرار النفسي وتعرف الحق والباطل فهذا يستلزم منك أن تفرح بنعمة الله وأن تستبشر وتبشِّر غيرك بها، فأنت تعرف الحقائق والناس يتيهون في المتاهات ولا يعلمون كيف يفسرون ما يعيشون، وأنت تعرف أن هنا لطف الله بك، هنا حفظك الله، هنا جبرك الله. وتسمع أحدًا ما يعرف الله ويقول لك أنا حظي جيد وكل مرة أقع في ورطة ألقى مخرجا، وكل مرة تكاد السيارة تذهب بي ثم أجد لي باب نجاة .. لكنك ترى كل هذه رسائل من الله لم يعرف كيف يترجمها إنما هي آثار لطف الله، وأراد الله منه أن يقرأها ليزداد إيمانا ويزول ما في قلبه من شك لكنه ما استطاع أن يقرأها.

فتصوَّر نفس تقرأ الحياة بما عرفت عن الله وتجلس بجانب أحد أُمّيّ لا يقرأ، والكلام الذي تقرأه وراءه إما نجاة أو سقوط في هاوية، ومعك إرشادات، فإذا قرأت جيدا ستخرج إلى النجاة وإن لم تعرف القراءة لن تنجو! تصوَّر هذا الموقف كم في القلب حزن على هذا الأُمّي الذي لا يستطيع أن يقرأ، الناس يعيشون الحياة أُمّيّين لا يعرفون قراءة أفعال الله.

النتيجة ← أن الذي يعرف أن يقرأ عليه أولا أن يفرح بقدرته على القراءة ثم يدلّ هؤلاء ويساعدهم على القراءة. وإذا لم يستطيعوا أن يخرجوا من أميتهم فهذا أمر الله. أنت تحمد الله أنك تعرف كيف تقرأ، لأنني لو ما عرفت أن أقرأ سأتوه، وهكذا من يقرأ الحياة ويعرف أفعال الله يستبشر ما أعطاه الله من الإيمان واليقين.

إذًا هذه عبادة عظيمة لابد من تحريكها في القلب لأن الناس يكتئبون اليوم إذا نقص عليهم أشياء لا قيمة لها، فبأي شي تستبشر! كل الدنيا لها عوض لكن الإيمان واليقين لا عوض له، وكل الدنيا يمكن أن تأتي بما تشتريه أما الإيمان واليقين لو اجتمع الناس بأموالهم على أن يدخلوه إلى قلبك ما استطاعوا، ليس له ثمن، وهذا يأتي بالتجارة مع الله.

المقصود أن هؤلاء يفرحون –كما قال الطبري– بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين. فالإيمان واليقين حالة تأتي من قراءة القرآن ويزداد بها الإيمان. يزداد الإيمان واليقين بقراءة القرآن ثم الحالة الجديدة التي نناقشها حالة الاستبشار، الفرح بما رزقنا الله.

فكل مرة نحتاج أن نشعر بمنّة الله. وإذا قدرت نعمة الإيمان واليقين، هذا دليل على التفاتك عن الدنيا وإقبالك على الآخرة. وإذا ازددنا فهمًا للاستبشار سيتبين لنا لماذا الاستبشار أمام ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾، لأن الذي فرح بنعمة الله سيحمد الله على النعمة، والمستبشر بنعمة لله سيحافظ على النعمة. وكلما زاد شكرا كلما أُعطي له زيادة وفُتِحت له

أبواب، وكلما زاد شكرا لله سبحانه كلما زاد ذوقا لنعمة الله. فهذا الفرح لا يقابله ولا يوازنه فرح أبدا لمن عرف حقيقة الدنيا وعرف ما معنى أن تزداد إيمانا ويقينا. معناها أنك ستثبت على (لا إله إلا الله) وقت القبض، ومعناها عند دخولك قبرك ستثبت وقت ما تُسأل الأسئلة الثلاثة، ومعناها وقت ما تخرج من القبر تكون ممن حظي بعناية الملائكة، ويكون الخمسين ألف سنة للناس عندك كما بين صلاة الظهر والعصر. هذه كلها مصالح عظيمة لمن قدّر على ماذا سيُقبِل. الناس يعيشون يومهم ولا يقدرون غدا أين سيكونون والشجرة الطيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] يقابلها الشجرة الخبيثة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] ثم يقول ربنا ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] القول الثابت نتيجة وجود الإيمان واليقين والاستبشار بهما.

قال ابن عادل: "(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) أي يقينًا وتصديقًا (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) أي: يفرحون بنزول القرآن وقيل بثواب الآخرة وقيل بالنصر والظفر".

كل هذه المعاني مقبولة ليس بينها تعارض. فكل واحد من هذه المعاني يحتاج أن نعيش معه الاستبشار

الاستبشار بنزول القرآن

صاحب الإيمان يستبشر في زمن النزول بنزول القرآن والآن يستبشر بالتعلّم كل مرة يتعلم آية أو سورة يحصل في القلب الفرح. أمس لم يكن مثل اليوم، تتعلم الآية فتقول اليوم زدت معرفة وعلما ويقينا، وسكت صوت باطلٍ في قلبي، وارتفع صوت حقٍ في قلبي، وأنير لي مكان الظلمة، وانفتح لي مكانا مغلقا. هذه المعاني تشعر بلذتها عندما يكون قلبك مع لسانك يقرأ ويفهم ويتدبر ويسأل ويبحث إلى أن يُجاب عليك ثم ينفك إشكال كبير كنت تعيشه.

فكل آية تقرأها وراءها مفاهيم وأنت تستنير وأمثلة ذلك كيف أن السفينة لها معنى، والريح لها معنى، والسحاب له معنى، والأرض تحت قدميك لها معنى، والجبل له معنى، والبشر واختلاف ألسنتهم وألوانهم لها معنى، فإذا لم يكن للناس معاني لهذه الأشياء فهم تائهين، بحيث يستغنوا عن حياتهم في لحظة بسبب الاضطرابات النفسية التي يعيشونها وهذا معروف في بلاد الكفر وأيضا معروفا في بلاد الإسلام للسبب نفسه أنه ضائع تائه لا يدري أين هو، ماذا يريد لا يدري من أين أتى وإلى أين المصير.

نحن نفرح بتعلّم القرآن ويظهر لنا الأمر، كلما تعلّمنا وتبيّن لنا معاني كانوا الناس تائهين فيها وأنت الأمر عندك يسير جدا. فالناس يجتمعون ويختصمون هل أصل الإنسان قرد! وأنت ليس عندك مشكلة، في داخلك يقين تام لا يحتاج أحد يناقشك فيه. إذا وجدت أحد من أهل الاسلام وضع قدمه في مكان غير مناسب ستقول ما حصل الإيمان واليقين ومن ثم الفرح والاستبشار لأن الذي يفرح ويستبشر بالمعلومة يقول هذا شأنكم أنا لا أدخل في التيه، أنا أعرف

أصلي وكيف خلق الله آدم وكيف كرمه وكيف رفعه وماذا فعل إبليس، كل هذا معروف بالنسبة لي. فمن السفه أن يتداول الناس بعض الكلمات والألفاظ الأجنبية ولا يدرون أنها ترمز إلى أمور وخرافات والناس يمارسونها.

فمثلًا قبل عشر سنين كان هناك عطر اسمه باندورا وهذا الاسم يرمز لأسطورة إغريقية تقول أن الإله –تعالى الله عما يقولون– أراد تعمية آدم عن أن يصل إلى الخلد، فأتى الشيطان ينصحه إلى طرق الخلد، هذه قصة شيطانية ومنها أتت عبدة الشياطين، وهذا خلاف ما في عقيدتنا أن الشيطان يريد غروره، تنبّه الإله –كما يقولون– فأنزل آدم إلى الأرض ومعه صندوق مليء بالشرور فلما فتحه خرجت باندورا التي هي حواء، فحواء تعتبر عقوبة له. فالناس تستخدم هذا العطر بدون أن يتصوروا أن له بُعْد. والمقصد ليس هذا وإنما أن تيههم وأفكارهم يسكتوا عنها زمنًا ثم يعيدوه وأنت تعلم الأمور بوضوح وكل شي لا تحتاجه لم تُخبر عنه، وكل شيء تحتاجه أُخبرت عنه، فأنت لك حق أن تفرح بنزول القرآن وتستبشر. كل ما ينفعنا في التعلم سنجده في القرآن، والذي لا ينفعنا لا نجده، هذا يسبّب لنا الاطمئنان، نتصور الحياة بصورة واضحة بدون تذبذبات – لا عما مضى في الحياة ولا على ما هو آت – لابد أن تقدِّروا وضوحه وأن تفهموا أن النفس التي ليس لديها هذه الاجابات تبقى متذبذبة.

من كثرة النعمة ينسى الإنسان أنه في نعمة وهذه حالتنا. من كثرة ما لدينا إجابات على كل شي لا نحس أنه مُنعم علينا بشيء والصحيح أن حق هذه النعم كلها أن تفرح بها. كل آية تقرأها وتفهما وتعرف عنها لابد أن تشعر أنها نعمة عليك. هذه المعرفة بنفسها نعمة، لذتها نعمة فكيف عندما تكون عبارة عن نور يجعلك تعلم ماذا يجب عليك أن تفعل، ورحلتك في الحياة كيف تسير فيها وكيف تنجو ولا تهلك.

الاستبشار بثواب الآخرة

أيضا في كلام ابن عادل **الاستبشار يكون بثواب الآخرة:** كل مرة تقرأ فيها آيات تُخبر عما سيكون في الآخرة لأهل النعيم وكيف يتاجرون مع الله، وكيف لما يدخلون الجنة يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥] تسمع هذا وتقول نعم سيذهب عن المؤمنين الحزن يوم القيامة لما يدخلون الجنة ويصبح الحزن كأنه ما كان. أنت في الدنيا تعيش الحزن والضيق والنقص ولكن ستأتي اللحظة التي ستقول فيها (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) إذا وُفقت وثبت على الطريق وأنت مؤمن على يقين أنها ستأتي هذه اللحظة فتتأملها وترجوها وتفرح بها وتفرح بكونك عرفت أنك ستقولها. كل كلمة تسمعها في القرآن عن الدار الآخرة يقين وحق، بقي أن تسأل الله أن نكون من أهلها. هي ستكون حقا وسيبقى المؤمنون ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٥-٣٦] نسأل الله أن نكون من هؤلاء اللهم آمين.

الاستبشار بالنصر والظفر في الدنيا

الآيات كثيرة في كتاب الله دالة على أن الله سيمكّن الذين ءامنوا، وسيكون لهم الدول، وسيذهب أهل الكفر، لكنها اختبارات تمر على أهل الإيمان متى ما نصروا دينهم سينصرهم الله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧] فيفرح الإنسان أنه عرف الطريق. كل يوم الناس يأتون بأطروحة لصلاح المجتمع، وأنت مع اليقين الذي تعيشه تعرف أن كل هذا المطروح –وإن كان صائب وصحيحا في حق غيرنا– في حقنا الأمر مختلف، فالظفر والنصر مرتبط بالإيمان ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ المعنى أنه لا يوجد طريق إلا هذا الطريق.

وقد مر علينا سابقا مثالا واضحا سيبقى في أذهاننا، كل الأطروحات التي يطرحها المسلمين الخيّرين الطيبين للحلول لنهضة المجتمع الاسلامي كلها خير وبركة لكنها بمثابة الأصفار. الواحد هي الإيمان، فإذا أتى الإيمان كأننا نضع واحد وتأتي الحلول بمثابة الأصفار. فإذا وضعت الأصفار في مقابل الواحد، يصبح الواحد له قيمة، يصبح مئة، ألف، مليون، لكن إن نزعت الواحد، تبقى أصفارا لا قيمة لها. فكل الأطروحات التي تكلمك عن التغيير الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي بمثابة الأصفار، فإذا لا يوجد إيمان، لا يوجد نصر ولا فوز ولا فلاح.

النساء أكثر ناس يُعلق في رقابهم مسألة النصر والفوز والسبب أن تحت أيديهم الرجال والأبناء والتربية. وهم لما أرادوا طعن العالم الإسلامي استعملوا المرأة والمسألة واضحة تماما. تفهمين أن تربية الإيمان للجيل القادم تساوي النصر والفوز وبه نفرح بأننا وإن لم ننحصل ويمد في أعمارنا أن نذوق فرح الفوز فليذوقوه أبناءنا وأحفادنا، وليكون في موازيننا يوم القيامة ما يكونوا فيه من النصر والفوز، يفرحون به في الدنيا ونحن نفرح بأجره يوم القيامة.

نحن متيقنين واثقين ولا يدخل في أنفسنا شك بأن النصرة لهذا الدين، وإن دارت الدوائر فهو بسبب التقصير في الإيمان والدين ولن نعود إلى المكان إلا بالإيمان والدين. والحمد لله رب العالمين الأمر على الأقل واضح أمامنا غير مشوش ولا نحتاج أن نحفر في الأرض ولا نعلي إلى السماء، أنت تحتاجين للإيمان فازرعيه والله يفتح بركات الأرض على الخلق. وتفكروا في هذه الدولة المباركة، هذا البترول يبقى محبوسا كل هذه السنين، وهذه الأمم لا تتقدم ولا تحتاجه إلا في هذا الوقت، وترتيب الأحداث يكون بظهور التوحيد ويظهر الدفاع عنه والاهتمام به فتحتاج الدول البترول ويحبسه الله عندنا، فيحتاجنا أهل الكفر مع ضعفنا ونقصنا.

فمتى فُتحت بركات الارض! لما جاء التوحيد، والله يملك بركات الأرض ويخرجها للخلق، فمن عرف هذا، عرف أن الفرج سيكون اليوم بأننا نعرف الطريق ولسنا تائهين. أنت ترين نفسك امرأة بسيطة وما معك إلا بيتك، وترين أن موضوع النصر كبير عليك، لكنك ستكونين جزء من منظومة كبيرة في العالم الاسلامي وسيأتي الفرج لكِ ولذريتك. وإذا لم تحصليه في حياتك ستجدي أجوره يوم القيامة عندما تجعلي الإيمان هو عماد هذا البيت، وهو ما تطلبينه وما ترغبينه وما تؤملين أبناءك فيه. ليس كل يوم تقولين له ادرس لكي تكبر وتصبح موظف وعندك راتب، ليس هذا ما نرغب به

ونفرح به، إنما نريده مباركا أينما كان ولا يكون مباركًا إلا بالإيمان، وأنت لا تحترمين طبيبا يغشك أو مهندسا يخدعك وكذلك لا تريدين أبناءك يكونوا بهذه الطريقة ولا يردهم عن هذا إلا الإيمان.

فالمقصود أننا سنفرح ونستبشر بالقرآن لأن وراء القرآن الوعد بالظفر والنصر لهذه الأمة ونحن على ثقة أنها أمة النصر. والطريق واضح اقرأ مثلا سورة محمد يتبين لك جزء من آية تضعه أمامك ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ تنصروه في نفوسكم، وتنصروا دينه، وتجاهدوا في سبيل الله ينصركم.

فالبداية في هذه الأسرة الصغيرة إلى هذه الأمة الكبيرة وتبقى المرأة عماد كل هذا الذي ندور حوله، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق نساء المسلمين جميعا للعودة للإيمان والتقوى واليقين ويجعل هذا هو المرغوب المطلوب الذي يفرحوا به، ويبقى الإيمان والقرآن والاستقامة والصلاة هي مقاييس الفرح بهؤلاء الأبناء، وليس الدنيا والجري وراءها هي مقياس الفرح. وما يطمع الأبناء في الدنيا إلا آباء ما عندهم كلام إلا الدنيا، وما يطمع الأبناء في الآخرة إلا آباء ما عندهم مطمع إلا وجه الله، وهكذا تُبنى الأمم. والتاريخ واضح كيف كانت مطامع القوم بأي شيء يفرحوا، نسأل الله –عزّ وجلّ– بمنّه وكرمه أن يجعل فرحنا بما عنده وبالإيمان والتقوى وبظهور مظاهر الإيمان في كل مكان وبالمصلين الذي يصلون الفجر ويخرجون من بيوتهم من أجل الله ويجتمعون على القرآن اللهم آمين.

ننتقل إلى بيان معنى الاستبشار:

والاستبشار: استدعاء البشارة؛ لأنه كلما يذكر النعمة حصلت البشارة فهو بالتذكر يطلب تجدد البشارة.

استبشر معناها عملية متجددة يعني اطلب البشارة فأنت لما تقرأ في القرآن بشِّر نفسك بما فيه، كلما ذكرت النعمة أن هذه سنة الله، أن هذه معاملة الله، هذا هو الله الذي أعامله. تذكِّر نفسك أن صبرك على الشوكة تشاكها معك فيه الله فكيف أعظم من ذلك (إن مع الله الصابرين)، لما تقرأ هذا جدِّد لنفسك البشارة ذكِّرها ناقشها كلمها: "أن أبشر الله معك " والذي معه الله لا يضيع ولا يتوه. بشِّر نفسك واستدعِ لنفسك البشارة.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وهم يبّشرون أنفسهم بما يجدونه في كتاب الله من حقّ ويقين ونِعَم.

كلِّم نفسك كلما وجدت في كتاب الله ما تستبشر به، لما تسمع من هو الله، وكيف أنه سبحانه وتعالى يرزق من يشاء، وكيف أنه سبحانه وتعالى هو الحفيظ، وكيف أنه سبحانه وتعالى القريب المجيب، وكيف أن من يتقيه يجعل له مخرجا، قُل لنفسك أبشر سيكون لك مخرجا من بعد الضيق، ولا أشك أبدا. استدعي لنفسك البشارة وهذا عمل لا يأتي إلا من وراء اليقين، كن متأكدًا أن الجملة التي تقرأها في القرآن حق وصدق ومن كلام الله ولا يمكن أن يتخلف وعد الله إن أتيت بأسبابه، إن قال لك أنه مع الصابرين كُن حقا صابرًا وسترى كيف أن الله معك. فإذا قرأت وأنت متيقن (معك إيمان)، بقي عليك أن تستدعي البشارة بشر نفسك وقل لنفسك أن الفرج قريب، فمن يتقِ الله يجعل له

مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، وهذه البشارة ستغيض الشيطان وسيكون العبد بهذه البشارة أقرب للرحمن لأن الشيطان يعدكم الفقر (لو أنفقت سيحصل لك، لو فعلت من الطاعات سينقص عليك، لو استقطعت وقت للصلاة لن ينتج لك.. ولن تنتهي من.. ولن تجد وقت.. وسيفوتك..) فمثلا اتصل عليك أحد يقول لك أنه خارج من البيت وبينك وبين المتصل نصف ساعة في المشوار وأنت واقف تريد أن تصلي، الشيطان يقول إنه الآن سيكون عند الباب وأنت تعرف لا يمكن ذلك فلو كان الطريق فارغًا سيأخذ على الأقل عشرين دقيقة، هذه العداوة يعدكم الفقر يشعركم دائما أن الفرص ستفوتكم وسيحصل لكم ما يؤذيكم. فلما تستبشر بكلام الله تغيظ بذلك الشيطان، وغيظ الشيطان قربة إلى الله يقترب بها الإنسان إلى الله -عزّ وجلّ- لأنه يغيظ عدوه، فلا يمكِّنه من نفسه، وأبغض ما على العدو أن يجدك منشرح النفس مقبل على ذكر الله وطاعته.

لذلك تجدون اليوم الاضطرابات النفسية والاكتئاب من تسلط الشيطان علينا -طبعا له جانب طبي لكن ليس موضوعنا- موضوعنا أن الشيطان يتشمم قلب الإنسان فإذا وجده ضعيفا تسلط عليه ويجلب له الاكتئاب والحزن. وأنت حتى لو أُصبت بالاكتئاب والحزن قل لنفسك أبشر حتى هذا الاكتئاب والحزن وراءه الأجر حتى تغيظه.

المقصود أننا في نعمة عظيمة لأننا نعرف من ربنا وكيف يعاملنا، حتى الشوكة نشاكها تكون سبب لفرحنا بأن تطهِّرنا. والمريض يمرض وتقول له اطمئن أنت تقوم من مرضك ما عليك خطيئة تمشي، فتبقى كل الحياة عبارة عن استبشار. أما الاكتئاب والأحزان الذي يدخل علينا من الشيطان والإعلام نرده وتبقى نفوسنا متعلقة بالله، فكلما ظلمت الدنيا أكثر فالفجر قريب ونحن على يقين.

﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يستدعون لأنفسهم البشرى بتجدّد النعمة. تجدّد النعمة أي أن الآية قرأتها وفهمتها اليوم كأنك ما قرأتها قبل ذلك وعشتها كأن حروفها ومعانيها واضحة تماما أمامك. كل هذا استدعي له البشارة والله -عزّ وجلّ- يؤجر الإنسان على هذه السعادة بالاستبشار بدين الله وبكلام الله وبالثقة بالله.

قال أبو حيان رحمه الله: (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) بما تضمّنته من رحمة الله ورضوانه.

يستبشرون بالسورة التي تنزل لأن السورة تتضمن رحمة الله ورضوانه، رحمة الله ورضوانه المقصود بها أنك لابد وأنت تقرأ في القرآن تجد أسبابا لرضى الله، تجد أسبابا لنزول رحمة الله، تجد أسبابا للوصول إلى رضى الله.

فالمعنى أن الطريق إلى رحمته ورضاه ليس غامضًا ولا عند أحد معين، كما في دين الكنائس هؤلاء يعطون صكوك الغفران، وهؤلاء يحبسون الدين، وهؤلاء يشوهونه كما يريدون. تقرأ القرآن، وتسمع في كتاب الله كيف تصل إلى رحمته، وكيف تصل إلى رضوانه فيبقى الباب مفتوحًا لكل مقبل، وهذا بنفسه يأتي للقلب مشاعر الطمأنينة والفرح. وقدروا الآن

مذنب قد أذنب ذنبًا عظيمًا ثم قرأ في القرآن ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] سيكون الفرح والبشرى برحمة الله وأنّ هذا الطريق طريق للرضوان.

والذي يقرأ سورة التوبة ويرى هذه السورة كيف ورد فيها الكلام عن التوبة وكيف أن الله ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾ [التوبة:١١٨] وتفهم من ذلك أنّ من آثار اسم الله التواب أنه يُلقي في نفوس عباده الرغبة في التوبة ثم إذا رغبوا في التوبة رزقهم العزم على التوبة، فإذا تابوا قَبِلَ منهم التوبة فهذا يُسبِب الفرح برحمة الله ورضوانه ويُسبِب للإنسان الشعور أنه مقبل على كريم رحيم. ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، ما يريد تعذيبك إنما يريد رحمتك وهو سبحانه وتعالى الغني عن عبادتك إن أقبلت أعطاك، وإن أدبرت ربّاك من أجل ألا تؤذي نفسك.

هذا كله يسبب الاستبشار، أن لنا ربًّا كريمًا قريبًا رحيمًا عظيمًا غنيًّا بيده ملكوت كل شيء، طاهرًا عزيزًا، كل هذا لما تسمعه يُسبِب الاستبشار، فأنت تستدعي لنفسك البشرى تقول لنفسك مهما عصت، مهما بعدت، ابشري ترى ربك قريب مجيب وسميع وبصير، وأنت على فراشك ما حركت ساكنا إلا قلبك بالخوف من الذنب تحات ذنوبك كما يتحات الورق عن الشجرة في الخريف. هذه بشرى عظيمة أنه لا يضيع عند الله شيء أبدا، مثقال الذرة ما يضيع. فكل هذا يسبب البشرى في معاملته سبحانه وتعالى. فعلى ذلك لو فهمنا هذا المعنى جيدا، سنجد نفسنا عند كل آية سنبشر أنفسنا خصوصا لما نقرأ في فصلت ونجد السورة تبتدئ بالخبر عن الكتاب العظيم ثم نسمع أنه نزّل من الرحمن الرحيم ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١-٢]، إذًا ستبشر نفسك أن الكتاب نزل من الرحمن الرحيم، سيتضمن الرحمة الواسعة وستصل من خلاله إلى رحمة الله، فمعنى ذلك لن تفتقد وأنت تقرأ في كتاب الله موقف تبشر نفسك به، وتستدعي البشرى فابشر أنت تعامل رب كريم، رب رحيم، رب قريب.

هؤلاء الذين يغيظونك من أهل الكفر والإلحاد ويستهزئون بدينك، ويقللون من قيمتك، ويجعلون الحجاب والاستقمة شيء مرذول، نسمع في أواخر سورة المؤمنون: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، ماذا فعلوا بهم! استهزؤوا بهم. فجاء اليوم الذين يعاقبون فيه حتى على استهزائهم بالمؤمنين، يعني حقك سيستخرج كاملا حتى الكلمات الذي أسقطوها على أذنك، كلها ستجد أجرها وتجد عقابهم عليها. هذا كله يبشرك أن اثبت، لا شيء يضيع، حتى فعلهم باستهزائهم بدينك سيجدون أثره. الأمثلة كثيرة، والأمر يحتاج أن يكون معنا مصحف نقرأ في كتاب الله ونستبشر بما يقول لنا ربنا وخلال دراستنا لفصلت نستبشر ويبقى نموذج وكتاب الله مليء بما تستبشر به.

من أعظم ما نُبشِّر نفسنا به: سورة الإخلاص

أنت تقول لنفسك والناس تائهين وخائفين وضائعين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] أنا لي واحد، والواحد سيّد قد كمل في سؤدده، صمد كل الخلائق بدون استثناء تصمد إليه، كاملٌ في رحمته، كاملٌ في علمه، كاملٌ في غناه، كاملٌ في قدرته، كاملٌ في حلمه، كاملٌ في كل صفاته، حاجتك كلها إليه.

كم هذه بشرى! ما الذي ينقصك؟ الذي ينقصك أول ما تفزع إليه، الخلق يُسخرون لي والأشياء تسخر لي، السبب هو أول ما أحتاج أفزع لواحد، والواحد أنا أثق فيه تمام الثقة وأعرف عنه أنه كامل الصفات. أليست هذه بشرى! في مقابل من يرجو هذا، ويذهب لهذا، ويروح عند هذا، وأنت حاجتك في ليلك ونهارك أول ما تشعر بها تفزع إليه، بشِّر نفسك بأن لك واحد قريب مجيب سبحانه وتعالى، واحد لا يحوجك أبدا لغيره ولا يجعلك ذليلا عند باب أحدٍ من خلقه بل يحب منك أن توحِّده في الطلب والرغبة والرجاء والخوف وتجعل مطامِعُك كلها له، هذه بشرى.

أما أن تذهب إلى الخلق الضعفاء الفقراء الذين يمارسون عليك أمراضهم مما يُعذِّب النفس ويُسبِّب لك الحزن ولكنه يحفظك ويحفظ ماء وجهك ولا يجعلك ذليلًا أبدًا، والذلّ والانكسار بين يديه شرف وفخر ورفعة. وكلما ازددت له انكسارًا وذلًّا، كلما زادك رفعة ومنزلة عند الخلق، هذا كله مما نبِّشر نفسنا به نسأل الله -عزّ وجلّ- أن نكون ممن وحَّد صدق التوحيد فذاق هذه البشرى وعاشها واستقامت نفسه؛ لأن كل الخير من عند رب الخير، لا شيء ينقص علينا، الذي ينقص يأتي به مالكه، والذي ينحبس غدا ينفتح، والذي لا يأتي شرٌّ انصرف، والذي يأتي رضينا به وسبب لأجورنا في الرضى والزيادة غدا تأتي فإن الشاكرين قد بُشروا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] كم هي بشارة! أبشر لما تقول الحمد لله يزيدك الله، هذا كله لابد أن يتحرك في داخل النفس من جهة أنك تجد في نفسك الشعور بنعمة الله، حرِك قلبك فتزداد به ثقةً ويقينًا وإيمانًا.

قال أبو السعود رحمه الله: (فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبّر فيها، والوقوف على ما فيها من الحقائق، وانضمام إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق.

(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية.

"بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبّر فيها" دلّتنا هذه الجملة كيف تحصل زيادة الإيمان وذلك بالتدبّر فيه، زيادة الإيمان هو العلم اليقيني الذي يأتينا من التدبر والوقوف على ما فيه من الحقائق، أنت لست جاري جريا، إنما أنت واقف عند كل حقيقة تتأملها وتفهمها وتبذل جهدك أن تعيشها.

"وانضمام إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق" يعني هو مؤمن إيمانًا إجماليًّا، مؤمن بالملائكة وبوجودهم، مؤمن أنها تعبد الله ولا تعصيه ثم يسمع في أوائل غافر أنها تستغفر للذين ءامنوا ثم ينضم هذا الإيمان لإيمانه السابق، وتقوى علاقته

بالملائكة، ويقرأ أنها تتلقى المؤمنين وتفعل معهم كذا في دنياهم وفي أخراهم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] فيبدأ ينضم لإيمانه الأول إيمان جديد، ويقين جديد، وثقة جديدة، ومعاملة جديدة للحقائق التي يسمعها هذا كله بسبب التدبر فيها.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ "بنزولها" بالنسبة لنا التعلم، نستبشر في كل مرة نتعلم فيها.

نرى آية سورة الرعد ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦] كيف أن في كتاب الله أتى بوضوح مسألة الاستبشار، من حال الذين أوتوا الكتاب ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بما أُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، هل هذا كل أهل الكتاب؟ لا، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾. نحن الآن شأننا الذي فرح بما أنزل الله لأنه قد استبشر بنزول القرآن. في آية التوبة كان الكلام واضح عن المؤمنين، أما في سورة الرعد مثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه من اليهود يعرف كتاب الله، يسمع آيات تنزل من القرآن شرح الله صدره للإيمان ولم يعاند مثل اليهود، ماذا سيحصل له؟ يفرح بما أُنزِل على الرسول صلى الله عليه وسلم. فلماذا يفرح بما أُنزِل على الرسول صلى الله عليه وسلم!؟

قال القاسمي رحمه الله: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة.

نشبه هذا الحال بحال الكفار الأصليين ويأتي لهم أحد يقرأ عليهم القرآن وهم لديهم أشياء وأجزاء من الحقائق، يسمعوا القرآن لو كانوا صادقين ويريدون الحق، سيفرحون أن الحقيقة اكتملت من الخبر القرآني.

وقال القاسمي: قيل عُني بهم الذين ءامنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

نموذج الذين يفرحون عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ما صورة الاستبشار والفرح في حقه؟ هو كان يعرف الكتاب ثم أتى من القرآن ما يُزيل الشبهة ويبين الأمر ويصرف الشك ويأتي بالحق. ما علاقة هذا بالاستبشار الذي نتكلم عنه؟ أحيانا كثيرة أهل الإسلام بسبب اختلاطهم بغير أهل الإسلام أو بسبب اختلاطهم بمن تنكّر للإسلام يُلقون عليهم شبه، هو الآن متمسك بكتاب الله، محب لكتاب الله، لكن هذه الشبهة التي تأتي يصدُّها عن الإجمال يأتون يُلقون عليه شبه وغالب الشبه تدور في الأحكام، قد مر علينا هذا الكلام سابقا فهم يتركون العقائد الواضحة التي ليس فيها إشكال ويأتون إلى الأحكام الشرعية ويقولون لماذا تُقطع يد السارق، ولماذا تلبس المرأة بهذه الطريقة، وقد مر معنا إجابة

إجمالية التي تقول إذا عرفت الله وسلّمت لكمال حكمته، عليك أن تُسلِّم لشريعته، فهمت بالتفصيل أم لم تفهم هذا شأن آخر، شأنك أن تقول آمنت بالله، الله حكيم، وأفعاله كلها حكمة، وشرعه كله حكمة، هذا بالإجمال. وفي كل مرة تتحرك في قلبه هذه الشبهة التي قالوها وهو يسكتها ويقول أنا مؤمن ربنا حكيم، ويوفق هذا أن يقرأ كتاب الله ويفهمها فتأتي إزالة لشبهتهم، يفهمها ويأتي أحد يفهمه الآيات ويقرأها في التفسير فتتبين بوضوح إزالة شبهتهم، فماذا سيحصل له! الفرح بإزالة الشبهة.

تكلمنا في البداية عن الفرح بالعلم، أكون جاهلة وأتعلَّم علم وأفرح بوجود العلم، وهنا الفرح بإزالة شبهة، تكون في نفسي قد أجِيب عليها إجمالا وأسكتها ولا أبحث بالتفصيل، فأقول أنا مؤمنة بربنا وقابلة لما شرع وحكم. ثم يحصل أن أتعلم القرآن ويرى الله من العبد صدقًا أنه يريد الحق فيعلمه شيء يكشف عنه الشبهة فيأتيه لذة من الفرح فقد زدت يقينًا بالتفصيل. ردّ الشبهة بالإجمال ولكن التفصيل له لذة لا يعدلها لذة، لما يجد أن الشبهة التي أقاموها عليه زالت بالقرآن. وهذا الأمر يحتاج منا ابتداءًا صدق بأننا مسلِّمين لرب العالمين وأننا متيقنين أن ما شرعه وحكم به وأخبر به أن أخباره صدق وأحكامه عدل، فأنا أعرف ربنا وأعرف كماله والتفصيل ليس شأني ثم إذا صدق العبد وأقبل على القرآن فليبشر أن الله لن يبقي شبهته في نفسه أبدا، إنما يقرأ في القرآن ما يزيل الشبهة فإذا زالت الشبهة يحصل الفرح ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ ﴾ هذه مشاعر لا يصفها إلا من عاشها، يحصل في النفس من الانشراح والانبساط والإحساس بالاستقرار لأن شبهة زالت بالحق.

الأصل في الشبهة ألا تتعرضِ لها، ولا تقول أنا متيقن وأجادل هؤلاء الملاحدة أو الصفوية، الشبهة بابها مغلق وإذا ابتليت بقريب ووقع في قلبك الشبهة، الجواب اعرف الله بكمال صفاته وسلِّم له واصدق في هذا التسليم ثم اعلم أن الله لن يتركك واقبل على القرآن ستجد الجواب ولكن لا تقبل على القرآن كشخص يقول جاوبني، وإنما إقبال شخص واثق من كلام الله، ويعلم أن الله لن يخذله. أحيانا الشبهة لا تُزال بعلم وإنما تُزال بأن الله ينسيك إياها وربما أزالها الله بعلم فإذا أُزيلت بعلم تأتي هذه المشاعر مشاعر الفرح.

وقال القاسمي: فإنهم يفرحون بما أُنزل من القرآن لما يرون فيه من الشواهد على أحقيته التي لا يبتلي فيه ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تُحصى.

أهل الكتاب كانوا يفرحون بالكتاب وبنزوله لأنهم لما صدقوا وجدوا في القرآن ما يدفع شبهتهم. وأيضا يفرحون لأن هناك شواهد كثيرة تدل على أنه حق، هؤلاء لديهم علم سابق فيجدون في القرآن ما يشهد على أنه حق، وأيضا سيجدون في القرآن من المعارف والمزايا الباهرة التي تُسبِب اليقين أنه حق.

يُقصد من هذا كله من لديه علم سابق في مسألة، فمثلا قاضي من أهل الكفر يعلم الأحكام الوضعية التي وضعوها الناس، فهو يفهم أن الحكم الوضعي الذي وضعوه في حكم السرقة وقد فشل وأتى وراءه سلبيات ثم غيروه ووجدوا له

سلبيات أيضا، لديه سابق علم وجاء صادق يريد الحق وهذا شرط مهم، لما يقرأ القرآن ويجد الحكم فيه يفرح بما يجده في القرآن من حكم، السبب أنه ذا علم في هذه المسألة وصدق في إرادة الحق فيفرح بما في القرآن من الحق. فهناك شرطين:

١- أن يكون صادق في إرادة الحق.
٢- أن يكون عنده علم في الباب الذي دخل فيه.

لن تشعر بهذه الأحكام التي أنزلها الله سبحانه وتعالى -التي يشوشون بها علينا- كيف أنها من أعظم أدلة حكمة الله. فأنت بعيد عن القضاء والتحكيم بين الناس بعيد عن معرفة الدوافع النفسية للجرائم، هل تفرح كفرح من يعيش الأمر ويعرف الدوافع والأحكام! أبدا، أنت لك التسليم العام والتصديق العام ولذلك الفرح لأنه يعرف الحكم بالنسبة للحال. لذا كثير ممن أسلم لا يسلم إلا إذا كان صادق في إرادة الحق، أسلم من وجه أنه وجد في كتاب الله ما فَرِح به من العلوم وشَهِد أنه لا يكون هذا إلا من رب العالمين.

فهمنا أمرين:

١. الاستبشار والفرح يكون بعلم أتانا بعد جهل
٢. الاستبشار والفرح بالقرآن بعد شبهة زالت بالحق.

ونحن الحمد الله أقرب لنا الفرح الأول وهو الفرح الذي أتانا بعد زوال الجهل.

غدا إن شاء الله في مبدأ كلامنا نتكلم عن الحالة الأخرى التي هي الغفلة، وكيف الإنسان يفرح لما يكون يعرف شيء لكن غفل عنه، يقرأ القرآن كأنه ما قرأه قبل ذلك!

لقاؤنا غدا بأمر الله .. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا الله نستغفرك ونتوب إليك.

انتهى اللقاء الثاني بفضل الله..